بين الأدب والتاريخ

ملامح شخصية الخليفة العباسي عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس
باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي
عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات - المغرب
عضو هيئة تحرير مجلة "حبفا لنا"
الجمهورية العربية السورية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد عبد الرحمن يونس ،ملامح شخصية الخليفة العباسي عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة: سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا.-دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١.ص ٦٦ – ٧٣.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

لا نجد في حكاية ألف ليلة وليلة صورة واحدة لطبقة السلطة وحكّامها ، بل تتعدد الصور ، وذلك نظرًا لتعدد رواة الحكايات ، وتباين مواقفهم الإيديولوجيّة من طبقة السلطة ، فهم تارةً يدينون هذه السلطة[١] ، ويهزؤون منها[٢] ، ويعتبرونها شرًّا و وبالاً على المجتمع[٣] ، وتارة يتعاطفون معها ، ويقدّمونها في صورة العفّة والطهارة والكرم[٤] . وهذا ليس غريبًا على السياق العامّ الذي تندرج تحته الأحداث والوحدات السرديّة ، والمواقف الأيديولوجيّة ، والذي يعتمد مبدأ الثنائيّات الضديّة المتناقضة والمتجاورة في الحكاية الواحدة ، والمتحكّمة في مسار سلوك الشخصيّة الواحدة ، الذي يكون قابلاً وبشكل دائم لأن يكون متبدّلاً من موقف إلى آخر ، ومن حالة إنسانيّة إلى أخرى ، ووفقًا للعوامل الإنسانيّة ، والحالات المزاجيّة ، التي تصيب هذه الشخصية ، فليس هناك شرٌّ مطلق ، ولا خير مطلق يتحكّمان في مسار هذه الشخصيّة أو تلك. وإذا كان بعض رواة الحكايات قد غمزوا بأخلاق الملوك والأمراء الفسقة[٥] ، ومن لفّ لفّهم من رجال السلطة ، فإنّهم في آن أكّدوا على الجوهري الإنسانيّ ، والأخلاقيّ الفاضل عند بعض هؤلاء الملوك والأمراء[٦] . لكنّ هذا الإنسانيّ النبيل لم يكن مساويًا في عدده لذاك السلطويّ المستبدّ الأهوج ، الذي لا يعرف إلاّ البطش والجبروت ، واغتصاب الثروات والنساء. وفي هذا المقال أحاول أن أدرس ملامح شخصية الخليفة عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة ، معتمدًا - بالدرجة الأولى- نصوص ألف ليلة وليلة ، ومستفيدًا في آن من بعض الأدبيات التاريخيّة التي ذكرت هذا الخليفة.

لا يأخذ المأمون بن هرون الرّشيد (١٩٨- ٢١٨هـ/٨٣١ - ٨٣٣م) في حكايات ألف ليلة وليلة فضاء سرديًّا واسعًا يعادل الفضاء الذي يحتلّه والده الخليفة هرون الرّشيد في هذه الحكايات ، إذ تذكره اللّيالي في أربع حكايات من حكاياتها. وهذه الحكايات هي: حكاية « إبراهيم بن المهدي مع ابن أخيه المأمون»، وحكاية « المأمون وزواجه بخديجة بنت الحسن بن سهل»، وحكاية « الجواري المختلفة الألوان»، وحكاية « المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر».

وتبدو صورة المأمون في هذه الحكايات مقاربة إلى حدّ ما من صورتها التّاريخيّة ، كما قدّمها المؤرّخون. ففي حكايته مع عمّه إبراهيم بن المهدي ، يبدو رجلاً حكيمًا وعاقلاً ، وخبيرًا مجرّبًا ، ممتلئاً بالحلم والحكمة ، ويعرف أن يكون نبيلاً، وكاظمًا لغيظه. إذ يشير راوي الحكاية إلى أنّ عمّه إبراهيم بن المهدي لمّا آلت « الخلافة إلى المأمون ابن أخيه هارون الرّشيد ، لم يبايعه بل ذهب إلى الرّيّ وادّعى الخلافة لنفسه ، وأقام على ذلك سنة واحدة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا ، وابن أخيه المأمون يتوقّع منه العود إلى الطّاعة وانتظامه في سلك الجماعة ، حتّى يئس من عوده. فركب بخيله ورجاله ودخل الرّيّ في طلبه. فلمّا بلغ إبراهيم الخبر لم يسعه إلاّ أنّه جاء إلى بغداد واختفى خوفًا على دمه. فجعل المأمون لمن يدلّ عليه مائة ألف دينار.»[٧] .

ويستمرّ السّرد الحكائيّ، ويلتجئ إبراهيم بن المهديّ إلى دار إحدى جواريه السّابقات ببغداد طالبًا الحماية وستر سرّه، لكنّ الجارية سرعان ما تذهب إلى دار الخلافة لتشي به. وبينما هو في دارها، وإذا بالنّديم إبراهيم الموصلي وغلمانه وجنود الخليفة – الذي أرسلهم المأمون للقبض عليه – والمرأة الجارية أمامهم، يحيطون به، ويأخذونه عنوة إلى الخليفة المأمون[٨]. وأمام الخليفة المأمون يقف إبراهيم معتذرًا منشدًا:

أتيت ذنبًا عظيمًا ... وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمنّ ... وإن جزيت فعدل

وعند ذلك يرى المأمون أنّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام، فيعفو عن عمّه، ويكظم غيظه، ويقبل عذره، ويردّ على شعره المعتذر، منشدًا:

وكنت إذا الصّديق أراد غيظي ... وأشرقني على حنقي بريقي
غفرت ذنوبه وعفوت عنه ... مخافة أن أعيش بلا صديق[٩]

وقبل أن يعفو المأمون عن عمّه إبراهيم بن المهديّ يستشير جميع خاصّته الحاضرين، إلاّ أنّهم يؤكّدون ضرورة الانتقام منه بقتله، لكنّ أحد العاقلين. يسميه الرّاوي بـأحمد بن خالد. يقول للمأمون: « يا أمير المؤمنين إن قتلته وجدنا مثلك من قتل مثله، وإن عفوت عنه فما وجدنا مثلك عفا عن مثله. »[١٠]. فما كان من المأمون إلاّ أن نكّس رأسه، واستنفر كرمه وعفوه[١١]، وأنشد قول أحد الشعراء:

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط
وأحفظ صنيعك عنده ... شكر الصنيعة أم غَمِط
و تجاف عن تعنيفه ... إن زاغ يوماً أو قَسَط[١٢]

ويقول إبراهيم بن المهدي[١٣] عن عفو ابن أخيه المأمون عنه: « والله ما عفا عنّي المأمون تقرّبًا إلى الله تعالى، ولا صلة للرّب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. »[١٤].

وعلى كلّ حال تبقى حالات العفو عن المتمرّدين سياسيًّا، والخارجين عن طاعة الخليفة أو السّلطان أو الأمير في ألف ليلة وليلة قليلة جدًا، إذ لا يشكّل كرم بعض حكّام اللّيالي وحلمهم مقياسًا يمكن الانطلاق منه وتعميمه، وبالتالي القول عن الحكّام الآخرين: إنّهم حكماء وعقلاء. بل يمكن القول، وتأسيسًا على ما تفرزه الحكايات من أنساق معرفيّة وفكريّة حول حياة هؤلاء الحكّام: إنّهم ظلمة وأجلاف، وقساة القلوب.

ويبدو أنّ صورة المأمون وهو يعفو عن عمّه، تتّفق مع الصّورة الوضيئة التي عُرِف بها في خلافته، من حلم وعدل وعفو، والتي نقل المؤرّخون كثيرًا من ملامحها. فقد كان المأمون عادلاً في إقامة الحقّ، وكان منصفًا حين جلوسه للنّظر في مظالم الناس، التي كانت تُرفع إليه، وكان يأخذ للمظلوم حقّه من الظّالم، حتّى ولو كان هذا الظّالم قريبًا أو ابنًا له. ويروي ابن عبد ربّه الأندلسيّ عن قحطبة بن حميد أنّه قال[١٥]:

«إنّي لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدّم إليه، وقد همّ بالقيام، امرأة عليها هيئة السّفر، وعليها ثياب رثّة، فوقفت بين يديه فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته(...) فقال لها يحي بن أكثم[١٦]: (...) تكلّمي بحاجتك؛ فقالت:

يا خيرَ مُنْتَصِف يُهدى له الرَّشدُ؛
و يا إماماً به قد أشرق البَلَدُ
تشكو إليك، عميدَ القوم، أرملةٌ
عُدِيَ عليها، فلم يُترك لها سَبَد[١٧]
وابتُزّ منّي ضياعي بعد مَنْعتها، ظُلمًا،
وفُرّق منّي الأهل والولد».

وعندما يسمع المأمون شعرها يطلب منها أن تأتيه يوم الأحد، وقت انعقاد مجلس ردّ المظالم:

« فلمّا كان يوم الأحد جلس[المأمون]، فكان أوّل من تقدّم إليه تلك المرأة، فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمة الله وبركاته. فقال: وعليكِ السّلام، أين الخصْم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين – وأومأت إلى العبّاس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجْلِسه معها مجلسَ الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العبّاس؛ فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنّك بين يديّ أمير المؤمنين، وإنّك تكلّمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإنّ الحق أنطقها وأخرسه ثم قضى لها بردّ ضيعتها، وظلم العبّاس بظُلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغِر[١٨] لها ضَيْعتها ويُحْسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.»[١٩].

وإذ يشير الرّاوي في الحكاية السّابقة إلى أنّ المأمون ردّ على اعتذار عمّه إبراهيم بن المهديّ، منشدًا من شعره و من شعر غيره، فإنّ اهتمام المأمون بالشّعر وحفظه وإنشاده، يبدو أنّ له خلفيّة مرجعيّة، تدلّ على شغفه بالأدب والفنّ، وتقديره لهما، فقد كان يحفظ كثيرًا من أشعار شعراء عصره، والعصور التي سبقته[٢٠]. وكان من أفضل خلفاء الدّولة العبّاسيّة، وعلمائها وحكّامها وحلمائها، وكان فطنًا كريمًا[٢١]. وكان يؤمّ بلاطه نفر من نجوم الغناء، والشّعراء، والعارفين بعلوم زمانهم، والذين « كانت لكلّ واحد منهم ذاكرة حافلة بمختارات من الشّعر الجيّد و من الرّوايات الأدبيّة. »[٢٢].

إن بنية السّرد وطبيعة الرّؤية الفكريّة التي تسمه، تثبت أنّه ليس هناك مقياس نقديّ ثابت ونهائي، يمكن تعميمه على كلّ حكايات وشخوص ألف ليلة وليلة، فما ينطبق على حكاية قد لا ينطبق على حكاية أخرى، وما تتّصف به شخصيّة ما من شخصيّات ألف ليلة وليلة، من عدالة وحلم وحكمة، يمكن أن يُخرق، ويبدو تهوّراً عند هذه الشّخصيّة في حكاية أخرى، وذلك نظراً للثنائيّات الضّدّية المتحكّمة في مسار سلوك الشّخصيّة الواحدة، كما أشير إلى ذلك سابقًا. فالخليفة أو الملك أو الحاكم في اللّيالي، وإن بدا عاقلاً وحكيمًا ومتّزنًا في بعض المواقف، فإنّه سرعان ما يتخلّى عن اتّزانه إذا سمع بوجود امرأة جميلة خارج قصره، إذ يفعل كلّ ما بوسعه لجلبها، ويبدّد مال خزينة بيت المال لشرائها.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وهذه هي حال الخليفة المأمون في حكاية « المأمون و زواجه بخديجة بنت الحسن بن سهل »، إذ يطلب المأمون من إسحاق الموصلّي أن يجلس في قصر الخلافة، وينتظره، حتّى يذهب لقضاء غرضٍ من أغراضه، عندها توسوس له نفسه العاشقة للغناء أن يذهب إلى دار خديجة بنت الحسن بن سهل[٢٣] ليسمع غناءها[٢٤]، وما إن ينتشي بالموسيقى وبجمال خديجة بنت الحسن وجواريها، ويعود إلى منزله، حتى يهجم عليه جنود المأمون ويأخذوه أخذًا عنيفًا إلى دار الخلافة. يقول الموصلّي: « فوجدته [أي وجد المأمون] قاعداً على كرسيّ و هو مغتاظ منّي، فقال: يا إسحاق أخروجًا عن الطّاعة؟ فقلت لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصّتك، أصدقني الخبر. »[٢٥] عندها يصف الموصلّي جمال خديجة وشفافيّتها، فيندفع المأمون ملتاثًا بالعشق الذي لا يطيق عليه صبرًا، ويطلب من الموصلّي أن يأخذه إلى دارها، ليرى جمالها. فيحتال الموصلّي، ويطلب منها أن، تسمح له باصطحاب ابن عمّه. ويتنكّر المأمون كعادة أبيه هرون الرّشيد، ويدخلان منزل خديجة، وهناك في منزل الفتاة يتخلّى المأمون عن وقاره أمام جمال المرأة، ونبيذها، ويكشف قناعه كما كان والده الرّشيد يفعل. يقول الموصلّي واصفاً استقبال خديجة لهما:

« فأقبلت وسلّمت علينا. فلمّا رآها المأمون تحيَّر من حسنها وجمالها وأخذت تذاكره الأخبار وتناشده الأشعار. ثم أحضرت النّبيذ، فشربنا وهي مقبلة عليه مسرورة به وهو أيضًا مقبل عليها مسرور بها. ثم أخذت العود وغنّت طريقة، وبعد ذلك قالت لي: وهل ابن عمّك هذا من التّجار؟ وأشارت إلى المأمون، قلت نعم، قالت: إنّكما لقريبا الشبه من بعضكما بعضاً، قلت نعم. فلمّا شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطّرب فصاح، وقال: يا إسحاق، قلت لبّيك يا أمير المؤمنين، قال غنّ بهذه الطّريقة. فلما علِمَتْ أنّه الخليفة مضت إلى مكان ودخلت فيه. »[٢٦].

إنّ الوحدة السّرديّة السّابقة تشير إلى أنّ المأمون قد تحرّر من سطوة السّلطويّ وهيبته، واندفع محموماً أمام جمال المرأة، وشرب ثلاثة أرطال من النّبيذ احتفاءً بصوتها الجميل، وإعجابًا بشكلها الجماليّ. و هذا الاندفاع يبدو طبيعيًّا و مألوفًا بالنّسبة للمأمون، ولاسيّما أنّه يعايش مجتمعاً بغداديّاً ترفاً، عاقر فيه الخلفاء كلّ أصناف الخمرة. ويبدو أنّ راوي الحكاية استعار فكرة أرطال النّبيذ الثلاثة التي شربها المأمون من أبي الفرج الأصفهانيّ، الذي يشير إلى أنّ المأمون كان يندفع محمومًا إلى الخمرة، وبخاصّة إذا استمع إلى الغناء الجميل. فها هو يستمع إلى صوت المغنّي مُخَارق[٢٧] وهو ينشد:

ألـم تقـولي: نَعَـم، قالـت: أرى وَهَمـا
منّي وهـل يؤخذ الإنسـان بالوَهَـم![٢٨]

وينتشي المأمون طربًا عند سماعه لهذا الصّوت، ويشرب ثلاثة أرطال من النّبيذ[٢٩].

وفي الوحدة السّرديّة السّابقة عندما تعرف خديجة بنت الحسن أنّ الماثل أمامها هو الخليفة المأمون، تتراجع خائفة من هيبة السّلطة، وتحتجب عن الخليفة. ونظراً لسطوة الخليفة المطلقة في النّظام العبّاسيّ، فقد وعى النّاس جميعًا، في ولايات الدّولة العبّاسيّة، الخطر الذي يمكن أن يَحْدِق بالفرد فيما إذا اقترب من هذه السّلطة أو نادمها، ومن خلال هذا الوعي انسحبت خديجة محتجبة. فالسّلطة السّياسيّة أداة قاهرة في النّطاقين الاجتماعيّ والتّاريخيّ[٣٠] لأنّها تمارس فيهما أدوات قهرها، وهي أداة قاهرة في كلّ الفضاءات المكانيّة التي تحلّ فيها، لأنّها تفرض سطوتها وأبّهتها وديكتاتوريّتها.

وعندما قدّم المغني إسحاق الموصلّي نفسه لخديجة على أنّه تاجر، وعندما قدّم المأمون على أنّه ابن عمّه، وأنه تاجر مثله، أعطت خديجة نفسها مزيدًا من الحرّيّة، وشربت النّبيذ، وأنشدت مستمتعةً بهذين التاجرين الظّريفين، اللّذين لا سلطة لهما عليها. وعندما عرفت أنّ الرّجل –المأمون- كشف قناعه، وبان وجهه السّلطويّ، احتجبت، لأنّها تعي أنّ نظام مجتمعها العبّاسيّ يقوم على سطوة الطّبقات السّلطويّة المطلقة على ما دونها، واستخدام هذه السّطوة لاغتصاب الأموال، وأخذ النّساء بالتّرغيب بالمال، أو التّرهيب بسيف السّلطة؛ وتعي أنّ الخليفة فيما إذا انتشى طربًا، قد يزداد ثملاً، وبالتّالي قد ينفلت الوحش الرّابض وراء أبّهة وقناع السّلطة، ليبسط مخالبه، ويؤذيها هي ومن حولها، عندها اضطرّت أن تنسحب من مجلسه وتحتجب، ولاسيّما بعد أن عرفت أنّ الموصلّي والمأمون أتقنا دور الحيلة جيدًا، ودخلا دارها بعد أن تقنّعا متنكّرين بهيئة التّجار. ولأن الخليفة المأمون عشق خديجة بنت الحسن عشقًا جنسيًّا، فإنّه سارع وهو في أوج نشوة السّكر، وبعد أن احتجبت خديجة مباشرة، وسأل:

« من ربّ هذه الدّار؟ فبادرته عجوز بالجواب وقالت: هي للحسن بن سهل. فقال: عليّ به. فغابت العجوز ساعة وإذا بالحسن قد حضر، فقال له المأمون: ألك بنت؟ قال: نعم، قال: ما اسمها؟ قال: اسمها خديجة. قال: هل هي متزوّجة؟ قال: لا والله. قال: فإنّي أخطبها منك. قال: هي جاريتك وأمرها إليك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألف دينار وتُحمل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: سمعًا وطاعة.[٣١]

من خلال الوحدة السّرديّة السّابقة يمكننا أن نفهم إلى أيّ مدى تدنّت فيه قيمة المرأة في النّظام السّياسيّ العبّاسيّ، فالمأمون لا يرى في الصّبيّة التي ستصبح زوجته إلاّ سلعة بين السّلع النّسائيّة الكثيرة المعروضة في منازل مدينته، ومن هنا فقد حدّد قيمتها بثلاثين ألف دينار. إنّها سلعة قابلة للتّبادل، لكنّ التّبادل هنا ليس سلعة بسلعة أخرى، بل بقيمة نقديّة. وعلى الرّغم من أنّ خديجة سيّدة من حرائر المجتمع العبّاسيّ، فعمّها الفضل بن سهل كان وزيراً للخليفة المأمون، ثم صار بعده والدها الحسن بن سهل وزيرًا عند هذا الخليفة؛ إلاّ أنّها في النّهاية ليست إلاّ جارية، طالما أنّ قيمتها حُدِّدت بمبلغ مالي باهظ.

وتتعمّق سياسة التّبادل السّلعيّ الاستهلاكيّ بين رأس النّظام السّياسيّ، ونساء الطّبقات الأخرى، من خلال هذه النّظرة الدّونيّة للمرأة، فكأنّ الخليفة المأمون يريد أن يعقد صفقة تجاريّة بحتة، لا علاقة لها بالمشاعر الجماليّة والإنسانيّة التي يؤطّرها فعل الحبّ بين المرأة والرّجل. وهاهو بوضوح يحدّد للحسن بن سهل شروط هذه

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الصّفقة التّجارية ، وما على الحسن إلاّ أن يقبلها شاء أم أبى ، هو وابنته. ويمكن صياغة شروط هذا العقد التّجاري التي يفرضها القويّ . المأمون . على الشكل الآتي: يا حسن بن سهل ، أنا سأشتري ابنتك خديجة فما عليك إلاّ القبول ، ورجالي سيحملون إليك ثلاثين ألف دينار صباح هذا اليوم ، وعندما تقبضها ، فما عليك إلاّ أن تملّكني ابنتك ، وتحملها إليّ بنفسك إلى قصري في بغداد ، واتّفاقنا هذا غير قابل للنقض من طرفك.

وطالما أن السّلعة المشتراة هي جارية في نظر السّلطة السياسيّة ، يُلاحظ أن الحكاية لا تستشير البنت فيما إذا كانت قابلة بعقد البيع هذا ، لأنّ رأس السّلطة السّياسيّة لا يرى نفسه إلاّ خليفة الله في الأرض ، وما أموال المسلمين ونساؤهم إلاّ ملك له. أمّا الحسن بن سهل ، والد خديجة ، فإنّه لا يرى في ابنته إلاّ جارية يشرّفها أن تخدم المأمون ، وإنّه بوجود المأمون لا أمر له على ابنته ، بل الأمر كلّه للمأمون ، وله الحقّ في امتلاك المرأة الجارية مقابل ثلاثين ألف دينار. وتشير المفردات اللّغويّة في الحكاية بوضوح إلى العقليّة السّلطويّة التّجاريّة ، التي يكرّسها النّظام السّلطوي ، وعلى رأسه الخليفة من جهة ، والنّظام الرّجوليّ ، والد الفتاة ، من جهة أخرى: « من ربّ هذه الدار؟..هي جاريتك.. أمرها إليك يا أمير المؤمنين.. احملها إلينا.. سمعًا وطاعة ».

إنّ ما يسم طابع العلاقات الاجتماعيّة والإنسانيّة في مجتمعات ألف ليلة وليلة « هو طابع السّلطة الفوقيّة. فصاحب السّلطة في المجتمع (ومن يمثّله أو يمثّل سلطته) هو الذي يملك ويستفيد ، بينما باقي النّاس تقبل وترضخ وتمتثل. « والكبير » (...) هو دومًا الذي يتسلّط ويحكم ويسيطر. فالقرارات تؤخذ « من فوق » بمعزل عن الأكثريّة التي تشكّل هدف هذه القرارات [و] ليس الكبير صاحب السّلطة والمركز في المجتمع إلاّ صورة مكبّرة للأب في العائلة بتصرّفاته ونظرته لنفسه وعلاقته بمن هم دونه».[٣٢]

وإذا كان الرّاوي لم يستشر خديجة بنت الحسن ، فيما إذا كانت قابلة بالخليفة المأمون ، فلأنّه يعي تمامًا أنّ حكايته ستفقد مصداقيّتها في حالة الاستشارة ، ولأنّه سيعطي هذه المرأة مكانة مهمّة ، تبدو فيها ندّا للخليفة المأمون ، وهذا ما لا ترضاه السّلطة السّياسيّة ، فأيّ شرف لأسرة الحسن بن سهل أعظم من شرف أن تكون ابنته خديجة خادمة لرجل سلطويّ كبير جدًّا ، ولاسيّما أنّ هذا الرّجل هو أمير المؤمنين؟. وإذا كان الأمير أو الحاكم في طبيعته الاستبداديّة مضطّراً لأن يفرض الخوف على شعبه حتّى يطيعه ، فإنّ عليه فرض الخوف بطريقة «يتجنّب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحبّ ، إذ إنّ الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معًا جنبًا إلى جنب ، وفي وسعِ الأمير الذي يمتنع عن التدخّل في ممتلكات مواطنيه ورعاياه ، وفي نسائهم ، أن يحصل عليهما. »[٣٣]. إلاّ أنّ خلفاء وملوك وأمراء ووزراء ألف ليلة وليلة لم يكونوا قادرين على الامتناع عن التّدخّل في ممتلكات مواطنيهم ، وفي نسائهم ، بل كانت معظم اهتماماتهم تنحصر في امتلاك الأموال والعقارات والنّساء ، ولم يكن يهمّهم أكان هذا الامتلاك مشروعًا أم اغتصابًا.[٤٣]

وبالعودة إلى الحكاية السّابقة «حكاية المأمون وزواجه بخديجة» ، يمكن القول إنّ خديجة لن تكون في قصر الخليفة المأمون إلاّ جارية كما حدّد لها والدها الحسن أن تكون ، وستنحصر مهمّة هذه الجارية في كونها سلعة جميلة باهظة الثّمن ، ينحصر دورها في التّرفيه عن الخليفة جنسيًّا ، وفي تبديد كآبته بصوتها الجميل جدًا. وعندما تتحوّل العلاقات الإنسانيّة بين أفراد المجتمع إلى علاقات جنسيّة وسلعيّة ، فإنّها تساهم في تأبيد عبودية المرأة ، وفي تأبيد تخلّف المجتمع ، وبالتّالي في استمرار علاقات القوّة والسّيطرة والتحكّم[٣٥] في المجتمع الذي يقوم ، في تركيبته السياسيّة والاجتماعيّة ، على التباين الطبقي الحادّ وعلى امتلاك القويّ فيه لكلّ شيء.

وإذا كان الخلفاء والملوك والأمراء في الليالي ، أو في المدينة العربيّة الإسلاميّة يستطيعون امتلاك أجساد النساء بالسطوة والإرهاب والأموال ، فإنّه ليس من الضروري أن يمتلكوا أرواحهنّ وعواطفهنّ ، وتطلعاتهنّ الجنسيّة الأخرى صوب رجال من خارج القصر. فعلى سبيل المثال يشير أبو فرج الأصفهاني إلى أنّ الخليفة المأمون اشترى المغنيّة المتميّزة عريب بمائة ألف درهم[٣٦] ، لكنّه لم يستطع أن يمتلك روحها التوّاقة إلى عشيقها محمد بن حامد ، فقد كانت تحتال للخروج من قصر المأمون وزيارة عشيقها في منزله ، على الرغمّ من أنّ المأمون: « حبسها في كَنيف مظلم شهراً لا ترى الضوء ، يُدخَل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب في كلّ يوم »[٣٧] ، علّه يمنعها من لقاء عشيقها محمد بن حامد ، إلاّ أنّه لم يستطع ، وبعد أن أفرج عنها ، أن يكبح جموحها وتوقها الجنسيّ لهذا العشيق ، فقد كانت تخرج من قصره ، إذا هبط الظلام وتتوّجه إلى دار عشيقها محمد بن حامد. ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه: أنّه كان خارجًا في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق ، بأمر من المأمون ، لإيصال رسالة من رسائله ، فـ « برقت بارقة فأضاءت وجه الراكب ، فإذا عريب ، فقلت: عريب؟ قالت: نعم ، حمدون؟ قلت: نعم. ثمّ قلت: من أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد ، قلت: وما صنعت عنده؟ قالت عريب: يا تكش[٣٨] ، عريب تجيئ من عند محمد بن حامد في هذا الوقت خارجة من مَضْرب الخليفة وراجعة إليه ، تقول لها: أيّ شيء عَملتِ عنده؟ صَلَّيت معه التراويح؟ أو قرأت عليه أجزاء من القرآن ، أو دارست شيئاً من الفقه ، يا أحمق تعاتبنا ، وتحادثنا ، واصطلحا ولعبنا ، وشربنا وغنيّنا ، وتنايكنا ، وانصرفنا ، فأخجلتني وغاظتني وافترقنا»[٣٩].

إذا كان إسحاق الموصلّي ، في الحكاية السابقة ، هو الذي وصف للمأمون جمال خديجة بنت الحسن ، قائلاً: « جارية كأنّها البدر الطالع »[٤٠] ، فإنّه في الواقع التاريخيّ هو الذي وصف له جمال الجارية عريب ، وشجّعه على شرائها ، فما كان من المأمون إلاّ أن أمر كاتب نفقاته إبراهيم بن رباح أن يشتريها[٤١]. ويبدو أنّ أفعال ومواقف ندماء الخلفاء وعبر تاريخهم الطويل كانت مكرّسة لخدمة الخلفاء ، فبالإضافة إلى أنّهم ندماء ظرفاء مُرفّهون- بكسر الفاء- عن الخليفة ، فإنّهم دلاّلون له على النساء الجميلات المتميّزات في دولته. وحتّى يستطيع النديم الوصول إلى مكانة مهمّة عند الخليفة أو الملك ، عليه أن يتحلّى بمجوع من المزايا الأخلاقيّة ، ومنها أن يكون ذكيّاً ، فـ « الذكاء أوّل ما يجب أن يتّصف به من يخالط السلطان ويلازمه لأنّ صحبة السلطان لا تليق بذوي الجهل ، وذكاؤه عدّته للخروج من كثير من المتاعب التي قد يتعرّض لها. ولذا ينبغي أن يكون جليس السلطان وأنيسه جامعًا لخصال كثيرة أهمّها: « العقل ، فإنّه رأس الفضائل ، والعلم ، فإنّه من ثمار العقل». وإذا كان العقل أهمّ صفات فهذا يعني أنّه يجب أن يكون قادرًا على أن يفهم ما يريده الملك الذي يجالسه ويقرّبه ، ولذلك قيل: « ينبغي للنديم أن يكون كأنّما خُلِق من قلب الملك ، ويتصرّف بشهواته ، ويتقلّب بإرادته ، لا يملّ المعاشرة ، ولا يسأم المسامرة»[٤٢].

ويبدو أنّ إسحاق الموصليّ كان جامعًا لخصال كثيرة تؤهله لأن يكون نديمًا متميّزًا عند المأمون ومفضلاً على غيره من الندماء الكثيرين الذين كانوا يحضرون مجلسه، فقد « كان عالمًا فقيهًا وشاعرًا مجيدًا، وأديبًا أريبًا، و نديمًا جمّ الظرف حلو الشمائل، وجليسًا لطيف المعاشرة (...) لا يستغني عنه الخلفاء. وراوية يروي أخبار القدامى والمحدّثين بل وكثيرًا ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائليها. وكان مغنيًّا عارفًا بفنّ الغناء تمام المعرفة، وعازفًا ماهرًا، وملحنًا بارعًا»[٤٣].

وتشير حكاية: « الجواري المختلفة الألوان »، إلى دور النديم في تقديم الجواري للخليفة وتعريفه بهنّ من خلال أوصافهنّ المثيرة، وقدراتهنّ على المسامرة والمنادمة، وحفظهنّ الشعر، وبالتالي تحريض الخليفة على شرائهنّ. فقد كان من جملة ندماء الخليفة المأمون في الحكاية نديم يسمّى محمد البصري، وذات ليلة يسأله المأمون أن يحدّثه بشيء لم يسمعه قط، فقال: « يا أمير المؤمنين أتريد أن أحدّثك بحديث سمعته بأذني أو بأمر عاينته ببصري؟ فقال المأمون: حدّثني يا محمد بالأغرب منه»[٤٤]. ولأنّ النديم يعرف أنّ أهمّ ما يزيل هموم الخلفاء ويثيرهم في مجتمع عباسيّ منفتح على ثقافات العالم ونسائه وجواريه هو الحديث عن النساء، فقد قرّر محمد البصري أن يكون حديثه عن الجواري الجميلات، يضاف إلى ذلك أنّ محمدًا البصري عندما ينقل للمأمون أخبار النساء، فإنّ مكانته بين الندماء ستزداد عند المأمون، وسيقرّبه أكثر، نظرًا لشغف الخلفاء بالنساء شغفًا لا يقاوم، وبالتالي إيثارهم لكلّ نديم يكون دلّالاً لهم على هاته الجواري. فالبؤرة المركزيّة للحكاية التي سيحكيها محمد المصري للمأمون تضمّ « ستّ جوار كأنّهنّ الأقمار (...) وكنّ حسان الوجوه كاملات الأدب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب»[٤٥]. وكانت هاته الجواري مختلفات الألوان ومملوكات لرجل يمانيّ، انتقل من اليمن وحمل ماله وجواريه، واستقرّ ببغداد مستمتّعًا بالأيام الجميلة، والطعام والنبيذ والطرب، وبهاته الجواري المثيرات، ذوات الأصوات والألحان الشجيّة، القادرة على أن تجعل المكان ينفلت من سكونيّته، ليرقص تحت وقع هذه الألحان: « فأخذت [إحدى الجواري] العود، وأصلحته، ورجّعَت عليه الألحان حتّى رقص المكان »[٤٦].

ويستمرّ النديم محمد البصري في وصف هاته الجواري وقدراتهنّ المتميّزة على المناظرة فيما بينهنّ وبين سيّدهنّ حول مفاهيم الجمال اللونيّ والجنسيّ، ومتى تكون المرأة مثيرة جماليًّا ومتى لا تكون. ومن خلال المناظرة تُظهر هاته الجواري المغنيّات معرفة عميقة بأشعار الغزل التي قيلت في أوصاف المرأة المثيرة، ولون بشرتها، ثمّ تقدّم كلّ منهنّ نفسها إلى سيّدها على أنّها هي النموذج الجماليّ المثالي الذي يجب على الرجال أن يبحثوا عنه ويظفروا به[٤٧]. وما إن ينتهي النديم محمد البصري من سرد الحكاية، قائلاً[٤٨]: « فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجواري الحسان. »، حتّى يكون المأمون استُثير وانفجرت رغبات الامتلاك لديه، وقرّر أن يضمّ الجواري إلى حوزته، لاستكمال لذّاته بهاته النسوة التي لا يجود الزمان بمثلهنّ مرّة أخري. يقول المأمون[٤٩] لنديمه محمد البصري: « وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من سيّدهنّ؟ فقال له محمد: يا أمير المؤمنين قد بلغني أنّ سيّدهنّ مغرم بهنّ ولا يمكنه مفارقتهنّ. فقال المأمون: خذ معك إلى سيّدهنّ في كلّ جارية عشرة آلاف دينار، فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار، فاحملها صحبتك وتوجّه إلى منزله واشتريهنّ منه».

لقد عُرِف عن المأمون في فترة حكمه أنّه كان شغوفًا بالموسيقى، والسماع إلى أصوات المغنّين من الرجال والنساء، ومن شدّة شغفه بالغناء فقد كان في بعض الأحيان يدعو سائر المغنّين في بغداد للمثول بين يديه، ومنذ الصباح الباكر[٥٠]، ليفتتح يومه بإشعال طقوس الموسيقى، وكان في مجلسه يجلس مكللاً وسط المغنيّات الجميلات، إذا كان يُجلِس عشر مغنيّات عن يمينه وعشرًا عن يساره[٥١] وكان يسرف في الإنفاق على هؤلاء المغنيّات وعلى غيرهنّ، فقد كانت نفقاته على مسرّاته ستّة آلاف دينار كل يوم[٥٢]. ومن هنا ليس بعيدًا، في الحكاية، أن يأمر المأمون بشراء جواري الرجل اليماني بستّين ألف دينار، في حين أنّ فقراء بغداد يعانون الفاقة والجوع[٥٣]. ففي عصر الخلفاء العبّاسيين، على الرغم من الازدهار والثراء الذي عرفته الدولة العبّاسيّة فقد « تردّى الشعب في هوّة من الفقر أشدّ عمقًا لكي يقدّم إلى الخليفة نفقات مترافه في بغداد. وكان من الطبيعيّ أن تُبتّز الأموال الضروريّة لإشباع موظفيّ الدولة ونفقات البلاط من جيوب الشعب. »[٥٤]، ما دام هذا البلاط غارقًا في حمّى الترف والملذّات وامتلاك النساء.

وفي الحكاية السابقة يرسل المأمون نديمه محمد البصري إلى الرجل اليمانيّ، ويعلمه برغبة الخليفة بشراء الجواري، ولأنّ الرجل اليمانيّ يعيش في بغداد غير بعيد عن جلاوزة الخليفة وسطوتهم، فإنّه يضطّر مُكرْهًا إلى بيع الجواري، ولأنّ راوي الحكاية هو محمد البصري نديم الخليفة المأمون، أو هو الراوي الذي لا يخرج عن طوع السلطان أو المُهيَّأ لأن يكون نديمًا له فإنّه لا يستطيع أن يضع الرجل اليمانيّ موضع الرافض لعملية البيع، فيضطّر عندها إلى أن يقول إنّ عمليّة البيع تمّت « لأجل خاطر أمير المؤمنين »[٥٥]. فهو يعرف مسبقًا إلى أيّ مدى سوف يكون الخليفة باطشًا ومستبدًّا في حال لم تتمّ عملية البيع، وهو يعرف أنّه في ظلّ الخلفيّة المعرفيّة التي فرزتها السياسة العباسيّة من ظلم واستبداد مطلقين، ومن كون الخليفة هو الآمر والناهي، وظلّ الله على الأرض؛ لا يمكن لأيّ رجل كان، ومهما كان ثريًّا أو سلطويًّا، أن يردّ طلب الخليفة، وهذا الرّاوي متأكدٌ من أنّ الخليفة المأمون قد يلجأ إلى قتل الرّجل، أو تدبير مكيدة له، ثم مصادرة أمواله وجواريه، إذا رفض بيع هاته الجواري، عندها اضطرّ الرّاوي النّديم إلى تحقيق منطق التّصالح بين الرّعيّة والسّلطة، انطلاقاً من وجوب طاعة الرّعيّة للسّلطان، وجعل بطله اليمانيّ يتخلّى عن الجواري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيع الرّاوي أن يضع الخليفة أمير المؤمنين في حالة أرق وغضب، لأنّ من مهمّته أن ينادمه و أن يزيل أرقه. وعلى المستوى البنائيّ لا يستطيع الرّاوي فيما إذا قتل اليمانيّ أن يفكّ عقدة حكايته، ويجعل مسار سرده ينمو ليحقّق غاية وظيفيّة أخرى، وهي الوصول إلى فكرة عدل المأمون وحلمه، كما سيظهر في آخر الحكاية.

وتاريخيًا تشير سيرة المأمون إلى أنّه كان باطشًا وسفّاكًا، على الرّغم من حلمه وكرمه وعفوه، وتقديره للعلوم والعلماء. ويروي علي بن الحسين المسعوديّ[٥٦] الخبر الآتي: « وغلب على المأمون الفضل بن سهل[٥٧]، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها، فقتله، وادّعى قوم أن المأمون دسّ عليه من قتله. »، وإذا كان المأمون- تاريخيًّا- يقتل وزيره الفضل بن سهل لأجل جارية أراد شراءها، فليس بمستبعد حكائيًّا أن

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

يقتل الرّجل اليمانيّ- لا يذكر الرّاوي اسماً له- فيما إذا امتنع عن بيع جواريه الحسان. وتقول الحكاية: إنّ الجواري عندما وصلن « إلى أمير المؤمنين هيّأ لهنّ مجلسًا لطيفًا، وصرن يجلسن فيه معه وينادمنه، وقد تعجّب من حسنهنّ وجمالهنّ واختلاف ألوانهنّ وحسن كلامهنّ، وقد استمر على ذلك مدّة من الزّمان»[٥٨].

ولأن للمرأة أهميّة خاصّة، لا تعادلها أهميّة أخرى، عند الرّجال في التّاريخ العبّاسيّ وألف ليلة وليلة، باعتبارها ضروريّة جدًّا لإقامة طقوس المسرّات، فإنّ الرّجل اليمانيّ ما استطاع صبرًا على مفارقة جواريه، وحنّ إليهنّ، وأرسل كتابًا إلى الخليفة المأمون، يشكو فيه ما عنده من لوعة وحزن وشوق عارم لهذه الجواري، ويقول فيه:[٥٩]

قد سلبت ستّ ملاح حسان
فعلى السّتّة[كذا] الملاح سلامي
هنّ سمعي وناظري وحياتي
وشرابي ونزهتي وطعامي
لست أسلو من حسنهنّ وصالاً
ذاهب بعدهنّ طيب منامي
آه يا طول حسرتي وبكائي
ليتني ما خلقت بين الأنامي[كذا]

ولأنّ الرّاوي في هذه الحكاية هو راوٍ سلطويّ مؤدلج لخدمة فكرة العدل والكرم والمروءة عند الخلفاء المسلمين، اضطّر وحتى يُظهر الخليفة المأمون في صورة الرجل الكريم العادل، إلى أن يرجع هاته الجواري إلى سيّدهنّ. يقول[٦٠]: « فلمّا وقع ذلك الكتاب في يد الخليفة المأمون، كسا الجواري من الملابس الفاخرة وأعطاهنّ ستّين ألف دينار وأرسلهنّ إلى سيّدهنّ، فوصلن إليه وفرح بهنّ غاية الفرح، أكثر مما أتين به من المال، وأقام معهنّ في أطيب عيش و أهنأه [كذا]، إلى أن أتاهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات».

وإذا أخذنا بمنطق التّجارة المكرّس في ألف ليلة وليلة الذي يعتبر المرأة سلعة، تتحدّد قيمتها بقدرتها على إشعال طقوس المسرّات، ومجامر أجساد الخلفاء والملوك، فإنّه يمكننا القول: إنّ ما قدّمته الجواري السّت من ترفيه ومسرّات وغناء، خلال المدة التي بقين فيها في قصر الخليفة المأمون، يعادل كل ما دفعه المأمون لصاحبهنّ اليمانيّ من أموال، وربما لا يعوّض خسارة صاحبهنّ في فقدانه لهنّ، نظراً لما سبّب له هذا الفقدان من حسرات وآلام، فهو ليس بحاجة إلى المال، لأنّه من أصحاب الثّراء الواسع[٦١]، كما يؤكّد الرّاوي في أوّل الحكاية.

إذا كان الرّاوي في حكاية « إبراهيم بن المهديّ مع ابن أخيه المأمون » قد صوّر المأمون في صورة الحاكم الحليم والعاقل، والكريم الذي يعفو عند المقدرة، فإنّ راوياً آخر في حكاية « المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» قد صوّره في صورة الرّجل الجاهل بقيمة الآثار التّاريخيّة والجماليّة، وعلاقة هذه الآثار بفكر الأمم والحضارات التي أنتجتها، فهو في هذه الحكاية يصمّم على هدم أهرامات مصر، التي بناها الفراعنة: « حُكي أنّ المأمون ابن هرون الرّشيد لمّا دخل مصر أراد هدم الأهرام ليأخذ ما فيها (...)، فلمّا حاول هدمها لم يقدر على ذلك مع أنّه اجتهد في هدمها، وأنفق على ذلك أموالاً عظيمة، ولم يقدر على هدمها وإنّما فتح في إحداها طاقة صغيرة. ويقال إنّ المأمون وجد في الطّاقة التي فتحها من الأموال قدر الذي أنفقه على فتحها لا يزيد ولا ينقص فتعجّب المأمون من ذلك، ثم أخذ ما هناك ورجع عن تلك النيّة»[٦٢].

وإذا كان الرّاوي قد غطّى هدر المأمون لأموال الدّولة الإسلاميّة، وعبثه بها، في محاولته لهدم صرح حضاريّ وعمرانيّ، يُعتبر آية في الرّوعة والجمال والهندسة المعماريّة، من خلال المال الذي وجده في الكوّة المفتوحة، والذي يشكّل تعويضًا عن الأموال المهدورة في عمليّة الهدم، فإنّ صورة المأمون هنا لا تتّفق مع صورته في المواضع الأخرى التي يبدو فيها حاكمًا عاقلاً، وذوّاقًا للأدب والفنّ والجمال والموسيقى، كما يؤكّد بعض رواة اللّيالي، بل تتباين معها تباينًا واضحًا، لأنّ المأمون يبدو في هذه الحكاية رجلاً مستهينًا بالإرث المعرفيّ والعمرانيّ الذي تركته الحضارات السّابقة على الحضارات الإسلاميّة، هذا الإرث الذي يدلّ على عظمة هذه الحضارات، ودورها التّاريخيّ في مسيرة البشريّة و تطوّرها.

ويبدو أنّ لهذه الحكاية خلفيةً مرجعيّة تاريخيّة سجّلتها المصادر التّاريخيّة. إلاّ أنّ هذه المصادر تذكر أنّ الخليفة العبّاسيّ الذي أمر بهدم أحد هذه الأهرامات هو الخليفة هرون الرّشيد، وليس ابنه المأمون. ويروي هذه الحكاية المسعودي قائلاً:[٦٣]

> « إنّ الرّشيد لما دخل مصر، فرأى الأهرام أحبّ أن يهدم بعضها ليعلم ما فيه، فقيل له إنّك لا تقدر على ذلك، فقال لا بدّ من فتح شيء منه، ففتحت الثّلمة المفتوحة بنار توقد وخلّ يرشّ ومجانيق يرمى بها وحدّادين يعملون ما فسد منها وأنفق عليها مالاً عظيمًا فوجدوا عرض الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا، فلمّا انتهوا إلى آخر الحائط وجدوا خلف النّقب مَطْهَرَة[٦٤] خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقيّة من أواقينا، وكان عددها ألف دينار فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا معناه، فأخبروا بذلك الرّشيد، وأتوه بالذّهب والمطهرة فجعل يعجب من ذلك الذّهب، ومن جودته وحسنه وحمرته، ثم قال ارفعوا إليّ حساب ما أنفقتموه على هذه الثّلمة ففعل ذلك فوجوده بإزاء ذلك الذّهب الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص. ».

إذا كان النصّ السابق الذي يرويه المسعودي صحيحًا، فإنّه يمكن القول: إنّ راوي الحكاية في ألف ليلة وليلة يجهل بعض الحقائق التّاريخيّة، أو بتعبير آخر تختلط عليه هذه الحقائق، فهو إمّا يجهلها، وإمّا يعمل فيها تحريفًا، وكما يحلو له، إذ يجعل المأمون يهدم الهرم بدلاً من أبيه هرون الرّشيد. ويبدو أنّ هذا التّحريف في بعض الأحيان عائد إلى جهل الرّاوي بالعصور التّاريخيّة والأدبيّة للدّولة الإسلاميّة. فعلى سبيل المثال نجد الرّاوي في حكاية « عبد الملك بن مروان والقماقم السليمانيّة»، يذكر أن الشّاعر الجاهليّ النّابغة الذّبيانيّ كان حاضرًا في مجلس عبد الملك بن مروان، يستمع إلى حكاية القمام السليمانيّة التي يرويها طالب بن سهل للخليفة عبد الملك[٦٥]. وهذا خطأ تاريخيّ واضح، لأنّ النابغة الذّبيانيّ توفيّ سنة ٦٠٤م[٦٦]، أي قبل هجرة النبيّ محمد (ص) إلى المدينة سنة ٦٢٢م، في حين أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان ولد سنة ٢٦هـ/٦٤٦م[٦٧]، وبُويع له بالخلافة في مدينة دمشق في شهر رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٥م[٦٨]. فكيف يستطيع الشاعر النّابغة أن يكون حاضرًا في مجلس الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان ؟!

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) – ألف ليلة و ليلة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة دون تاريخ ،(أربعة أجزاء)، ٦١/٢، ٧٢؛ ٩٧/٣.

(٢) – م س ، ٨٦/٣، ١١٥، ١١٩.

(٣) – م س ، ١٢٢/٣؛ ٩١/٤، ٨٤.

(٤) – م س ، ٦/٣، ٤٣، ١٢٦، ١٣٤؛ ١٢/٤.

(٥) – م س ، ٥٩/١، ٢٧٥؛ ١٠٦/٢، ١٠٩، ٢٢٧.

(٦) – م س ، ٥٩/١، ٢٧٥؛ ١٠٦/٢، ١٠٩، ٢٢٧.

(٧) – ألف ليلة و ليلة ، ٤٠٥/٢ -٤٠٦.

(٨) – م س ، ٤٠٨/٢.

(٩) – م س ، ٤٠٨/٢.

(١٠) – م س ، ٤١٠/٢.

(١١) – إنّ صورة المأمون وهو يعفو عن عمّه في الحكاية ، تتناصّ إلى حدّ قريب جدًا مع الصورة التاريخية التي نقلها الأبشيهي ، إلاّ أنّ الأبشيهي يضيف إلى الحكاية ما يلي: " فلمّا سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة ، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول ، وأكثر مما تأمل ، ولقد حبّب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه ، لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفكّ قيوده وإدخاله الحمّام ، وإزالة شعثه".

- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق المكتب العالمي للبحوث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة ١٩٨٩م ، ٢٨١/١.

(١٢) – ألف ليلة و ليلة ، ٤١٠/٢.

- و غَمِطَ: جحد ولم يشكر. وقَسَطَ: جار وحاد عن الحقّ.

-معلوف ، لويس: المنجد في اللغة ، منشورات اسماعيليان ، طهران/ دار المشرق ، بيروت ،طبعة ١٩٧٣م ، مادة: غمط ، ص ٥٦٠. ومادة: قَسَطَ ، ص ٦٢٨.

(١٣) - إبراهيم بن المهدي: (ابراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور ، ١٦٢-٢٢٤هـ/٧٧٩-٨٣٩م): العبّاسي الهاشمي ، الأمير ، أخو هرون الرّشيد. وُلد و نشأ في بغداد ، وولاه الرّشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتّخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدّعوة إلى نفسه ، وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، فأهدر دمه ، فجاء مستسلمًا ، فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله ، فاعتذر ، فعفا عنه.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ، فبراير١٩٩٧م ، ٥٩/١. ٦٠.

(١٤) – الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢٧٦/١.

(١٥) – العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد ، شرح كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨١م ، ٤٣/١.

(١٦) – يحي بن أكثم: (يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي المروزي ، أبو محمد ، ١٥٩-٢٤٢هـ/٧٧٥-٨٥٧م): قاضٍ ، رفيع القدر ، عالي الشهرة ، من نبلاء الفقهاء. ولد بمرو ، واتّصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة (سنة ٢٠٢هـ) ثم قضاء القضاة ببغداد. وأضاف إليه تدبير مملكته ، فكان وزراء الدولة لا يقدّمون ولا يؤخّرون في شيء إلاّ بعد عرضه عليه. وكان مع تقدّمه في الفقه وأدب القضاء ، حسن العشرة ، حلو الحديث.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٣٨/٨.

(١٧) – السَبَد: القليل من الشعر.

- المنجد في اللغة ، مادة: سبد ، ص٣١٨. و تقصد المرأة بالسبد: الإبل.

(١٨) – أوغر لها ضيعتها: جعلها لها من غير خراج.

- المنجد في اللغة ، مادة: وغر ، ص ٩٠٩.

(١٩) – العقد الفريد ، ٤٤/١ -٤٥.

(٢٠) – المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق: عبد الأمير مهنا ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ٨/٤ –٩ –١٠.

(٢١) – ابن طباطبا ، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة ، دون محقق ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ ، ص٢١٦.

(٢٢) – حتي ، د.فيليب: الإسلام منهج حياة ، تعريب د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، آذار(مارس) ١٩٨٣م ، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢٣) – الحسن بن سهل: (الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي ، أبو محمد ، ١٦٦-٢٣٦هـ/٧٨٢-٨٥١م): وزير المأمون العبّاسي ، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط ، والأدب والفصاحة ، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون) التي يطلق عليها رواي الحكاية اسم خديجة. وكان المأمون يحبّه ويبالغ في إكرامه. وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان). وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٩٢/٢.

(٢٤) – ألف ليلة وليلة ، ٤١٩/٢.

(٢٥) – م س ، ٤١٩/٢.

(٢٦) – م س ، ٤٢٠/٢.

(٢٧) – مخارق: (مخارق ، أبو المهنّأ بن يحي الجزّار ، ... . ٢٣١هـ/ ... . ٨٤٥م): إمام عصره في فنّ الغناء. ومن أطيب الناس صوتًا. كان الرّشيد العبّاسي يعجب به حتى أقعده مرّة على السرير معه ، وأعطاه ثلاثين ألف درهم. واتصل بعد ذلك بالمأمون. وزار معه دمشق. وتوفي بسر من رأى. كان مملوكًا لعاتكة بنت شُهدة بالكوفة ، وهي التي علّمته الغناء والضرب على العود. وباعته ، فصار إلى الرّشيد.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٩١/٧.

(٢٨) – الوَهَم: الغلط أو السهو.

- المنجد في اللغة ، مادة: وَهَمَ ، ص ٩٢١.

(٢٩) – الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ، الهيئة المصريّة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، طبعة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م ، ٣٦٣/١٨.

(٣٠) – لابيار ، جان وليام: السلطة السياسيّة ، ترجمة الياس حنا الياس ، منشورات عويدات ، بيروت/باريس ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م ، ص١٥٣.

(٣١) – ألف ليلة و ليلة ، ٤٢٠/٢.

(٣٢) – شرابي ، د.هشام: مقدمة لدراسة المجتمع العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٩١م ، ص ٢١.

(٣٣) – مكيافللي ، نيقولو: الأمير ، تعريب خيري حمّاد ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ١٩٧٧م ، ص١٤٤.

(٤٣) – ألف ليلة وليلة ، ١٩٥/١ ، ١٩٦ ، ٢٣٥.

(٣٥) – طرابيشي ، جورج: شرق و غرب ، رجولة و أنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية) ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، شباط/ فبراير ١٩٨٢م ، ص١٧.

(٣٦) – الأغاني ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ومحمود محمد غنيم ، ٦٧/٢١.

(٣٧) – م س ، ٦٨/٢١.

(٣٨) – لم أجدها في المعاجم ، و ربّما لا أصل لها في اللغة العربية ، وربّما هي كلمة بذيئة من الدارجة تستخدم للشتيمة.

(٣٩) – الأغاني ، ٨١/٢١.

(٤٠) – ألف ليلة و ليلة ، ٤١٦/٢.

(٤١) – الأصفهاني: الأغاني ، ٦٧/٢١.

(٤٢) – عن/سرحان ، جمال: المسامرة والمنادمة عند العرب حتّى القرن الرابع الهجري ، دار الوحدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨١م. ص ١٠٢. وأخذ سرحان عن/النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فنون الأدب ، دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، طبعة ١٩٥٥م ، الجزء السادس ، ص ١٤١ ، والجزء الرابع ، ص ١٤٩.

(٤٣) – الحفني ، د. محمود احمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار و النديم ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، ص ٦٤.

(٤٤) – ألف ليلة و ليلة ، ٧١/٣.

(٤٥) – ألف ليلة وليلة ، ٧٢/٣.

(٤٦) – م س ، ٧٢/٣.

(٤٧) – لمزيد من الاطلاع على مقاييس الجمال المفضّلة عند الرجال الجنسيين ومعرفة متى تكون المرأة مهمّة عندهم ومتى لا تكون ، ينظر: المجلد الثالث ، من ص ٧٣ إلى ص ٧٧.

(٤٨) -م س ، ٨١/٣.

(٤٩) – م س ، ٨١/٣.

(٥٠) – الأصفهاني: الأغاني ، ٧٥/٢١.

(٥١) – الحفني ، د. محمود أحمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار والنديم ، ص ١٧٣.

(٥٢) – ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة ، ص ٢٢٦.

(٥٣) – ألف ليلة و ليلة ٨٩/١ ؛ ٣٩٦/٣.

(٥٤) – لاندو ، روم: الإسلام والعرب ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثاني ' كانون الأول ١٩٧٧م ، ص ٨٣.

(٥٥) – لاندو ، روم: الإسلام والعرب ص ٨٣.

(٥٦) – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٧/٤.

(٥٧) – الفضل بن سهل: (الفضل بن سهل السرخسي ، أبو العبّاس ، ١٥٤-٢٠٢هـ/٧٧١-٨١٨م): هو وزير الخليفة العبّاسي المأمون ، من أولاد ملوك الفرس المجوس ، وكان أبوه مجوسياً فأسلم في أيام الرّشيد ، وكان سخيًّا كريمًا ، وحليمًا بليغًا ، عالمًا بآداب الملوك ، بصيرًا بالحيل ، وسمّي بذي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. وكان يُقال له الوزير الأمير.

-ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٢١.

(٥٨) – ألف ليلة وليلة ، ٨١/٣.

(٥٩) – م س ، ٨٢/٣.

(٦٠) – ألف ليلة وليلة ، ٨٢/٣.

(٦١) – م س ، ٧١/٣.

(٦٢) – ألف ليلة و ليلة ، ١٧٣/٣.

(٦٣) – أخبار الزمان ، تحقيق عبد الله الصّاوي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت ، ص١٦٥.

(٦٤) – المَطْهَرَة: إناء يُتطهّر به .

-المنجد في اللغة ، مادة: طهر ، ص٤٧٤.

(٦٥) – ألف ليلة وليلة ، ٢٥/٤.

(٦٦) – عن/ضيف ، د.شوقي: العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٧م ، ص٢٧٥.

(٦٧) – المنجد في الأعلام ، ص ٤٥٣.

(٦٨) – الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب ، تحقيق إحسان خلوصي وزهير الصمصام ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، طبعة ١٩٩١م ، القسم الأوّل ، ص ١١٥.

من إصدارات الدكتور محمد عبد الرحمن يونس:

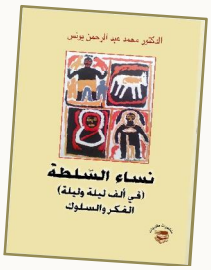

نساء السلطة في ألف ليلة وليلة: الفكر والسلوك ، كتاب جديد للدكتور محمد عبد الرحمن يونس صدر عن دار مجلة مقاربات الأكاديمية المحكمة في آسفي ، المغرب

Women power in A Night to night, thought and behavior, a new book by Dr. Mohammad Abdul Rahman Younes, recently published by the House Magazine academic approaches the court in ASafi, Morocco

ليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة مستبدّات طاغيات فحسب ، بل يوجد فيهنّ الزواني اللواتي يخنّ أزواجهنّ كلّما سنحت لهنّ الفرصة بذلك ، فهنّ يخطّطن لهذه الخيانة ويحتلن على أزواجهنّ ليذهبن إلى عشّاقهنّ ، وبخاصّة إذا كانت هاته النسوة مُتَخَيَّلات ، وغير معروفات في الواقع التاريخيّ ، مع العلم أنّ هؤلاء الأزواج ، كما يصوّرهم الرواة ، أوفياء لهنّ ، ومؤمنون ثقاة في بعض الأحيان. ففي حكاية « الحشّاش مع زوجة أحد الأكابر » ، يصوّر الراوي زوجة أحد الرجال المهمّين في حقل السلطة ، بصورة المرأة الزانية التي تنتقم من زوجها شرّ انتقام ، لأنّها ضبطته يزني بإحدى جواريها ، إذ أقسمت يميناً بأنّها ستنتقم منه ، وتزني مع أقذر الناس وأحطّهم منزلة. تقول المرأة: « اتّفق أنّني كنت أنا وإيّاه قاعدين في الجنينة داخل البيت ، وإذا هو قد قام من جانبي و غاب عنّي ساعة طويلة ، فاستبطأته ، فقلت في نفسي لعلّه يكون في بيت الخلاء ، فنهضت إلى بيت الخلاء ، فلم أجده ، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إيّاه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ ، فعند ذلك حلفت يميناً مغلظة أنّني لا بدّ أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم ». عندها تخرج المرأة بصحبة خدمها وحرّاسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقّة باحثين عن طلب المرأة و ما إن يشاهدها الناس حتّى يفرّوا مذعورين من بطشها. يقول الحشّا: " فوجدت الناس هاربين ، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلاّ يقتلوك. فقلت: ما للنّاس هاربين؟ فقال لي واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم يُنحّون الناس من الطريق قدّامها ، ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد "

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: طالما أنّ المرأة السلطويّة تخرج باحثة عن رجل وسخ لتزني به ، انتقاماً من زوجها الزاني ، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذي يتجوّل في الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه ، حتّى يبتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدّة ، وحتّى يُهان ويُضرب ، من دون أن يرتكب أيّ ذنب؟. يبدو أنّ المستبدّين و الطغاة في ألف ليلة وليلة ، رجالاً ونساءً ، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم ، و كان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم ، و هم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم ، ويبدو أنّ هذا الفرار كان يعزّز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطويّة. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها. و من هنا فإنّ المستبدّ الذي تضعف أخلاقه أو تفسد ، لا يهمّه إن أُهين شعبه ، أو قُهر جرّاء أفعاله الاستبداديّة. فالمرأة المستبدّة زوجة لأحد رجال السلطة المهمّين ، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشي في الشارع الذي تمشي فيه ، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشّاش ، ويربطوه ، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: « و إذا بالطواشيّ جاء إليّ وقبض عليّ ، فتهاربت الناس. وإذا بطواشيّ آخر أخذ حماري ومضى به. ثمّ جاء الطواشيّ وربطني بحبله وجرّني خلفه ، وأنا لم أعرف ما الخبر ، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحلّ من الله ، هذا رجل حشّاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال ؟ »

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449